بقلم : الدكتور نجيب الكيلاني

■■ القرآن هو المدرسة الأولى والأساسية للأدب الإسلامي .. تلك هي البديهية المؤكَّدة التي يجب أن نؤمن بها ، ونضعها موضع التطبيق ، فهو - أي القرآن - معين العقيدة الصافية ، وثبت القيم الأخلاقية الرفيعة ، وينبوع الأساليب اللغوية المتنوعة المعجزة ، والقواعد النحوية الصحيحة ، ودستور المسلم في أمور الدنيا والآخرة ، ومقياس الصدق في العلاقات الإنسانية فردية كانت أو جماعية ، وهو أولاً وأخيراً صورة صادقة للالتزام في الفكر والآداب والسلوك والعلم .. ■■

القصّة القرآنيّة والأدب الإسلامي

ولهذا فإن الأديب المسلم ، لا يستطيع أن يجيد تعبيره عن الكون والحياة والإنسان والمخلوقات ، إلاَّ إذا استلهم مضامين القرآن ، وواظب على قراءته وفهمه واستيعاب ما فيه ..

ويجب ألاَّ يتبادر إلى ذهن المتشككين أو المرتابين أن هذا المفهوم يعني تعطيلاً للإبداع الفني الحديث ، أو تجميداً للقيم الجمالية في دنيا الآداب ، فالقرآن قمة لا يدانيها بشر ، والجوانب الفنية والنفسية والتأثيرية فيه قد بلغت شاواً فريداً بعيد المنال ، وكان هذا الأداء الإلهي الفذّ قادراً على اجتذاب الفطر السليمة ، وعلى إقناع العقول السويّة ، والتغلغل إلى أعماق الوجدان الحي ، ثم الخروج بالإنسان إلى نطاق الفعل المتبصر ، والحركة الواعية ، والتغيير الإيجابي ، وإيجاد مجتمع الخير والعدل والفضيلة ، مع الانتصار على سلبيات الفكر والسلوك .. وهي الغاية التي طالما راودت أحلام الفلاسفة والأدباء والعقائد بين قديم الأزمان وحديثها ، لأن القرآن - كما أشرنا - وضع الأسس الصحيحة « لفن الكلمة الجميلة المؤثرة » ، سواء أجاءت تلك الكلمة في إطار القصة القرآنية ، أو في آيات الأحكام ، أو ضمن السرد المحكم ، والوصف الدقيق للأحداث والشخصيات والأمثال ، والقواعد العامة ، واحتدام الصراع بين مكونات الكون والحياة ، وهذه كلها أمور تفرغ لها كثيرون من العلماء القدماء والمحدثين ، ولا يزال كنز العطاء القرآني عامراً بالأسرار المعجزة ، والآيات القاهرة ، وسيظل كذلك إلى ما شاء الله .

فالقرآن بكل مضامينه المتكاملة ، وأشكاله التعبيرية الرائدة ، مدرسة أدبية متفردة متميزة ، فهو كما قال بعضهم : « ليس شعراً ، وليس نثراً ، ولكنه قرآن » ، لأنه يفوق فنون القول مجتمعة أو متفرقة ، ولذا عجز المشركون ان يأتوا بآية واحدة مثل آياته ، ولأمرٍ ما جاءت كلمات « البلاغ » و « البيان » و « الإبلاغ » و « التبيان » ، تبلور رسالة الإسلام ، وتحدد وظيفة الكلمة ، وقيمة الأسلوب ، في صنع الإنسان المؤمن ، الذي يواجه تبعات الشرك والخوف والعبودية والظلم والرذيلة والفساد ، مما يؤكد للأديب المسلم - أبد الدهر - أن للأدب أو « فن الكلمة الجميلة المؤثرة » رسالة يؤديها ، ووظيفة يقوم بها :

﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً ... ﴾
(يوسف : ١١١)

لم يكن النسق القرآني المعجز البديع الذي لا يبارىٰ ، موئساً للعزائم ، أو مقعداً للهمم ، أو باعثاً على الفتور ، أو معطلاً للإبداع البشري في مجال التعبير الأدبي ، ورسولنا ﷺ هو الذي قرر أن من البيان لسحراً ، وأن في الشعر حكمة ، ودعا حسان إلى الخروج ليواجه شعراء القوم بشعر العقيدة الصادقة ، ولم لا ؟ والقرآن هو النبع الذي يستقي منه الشعراء والأدباء ؟ وماذا يضير الكلمة « المسؤولة » أن تترجم عن فكر الدعوة وأصولها بشتى الوسائل والأساليب ، وأن يكون « لكل مقام مقال » ، وأن تكون مخاطبة الناس « على قدر عقولهم » ؟؟

وقد يكون من المفيد أن أتناول في هذه العجالة موضوعاً هاماً من موضوعات القرآن الكريم وهو القصة .. والمعروف أن فن القصة - قديماً وحديثاً - له قدرة فائقة في الاستئثار بنفس السامع أو القارىء ، وفي التأثير عليها ، كما يتميز بالتشويق والجذب ، يستوي في ذلك الكبار والصغار ، والمتعلمون والأميون ، ولهذا أفردت لها آداب الأمم حيزاً كبيراً في تراثها ، وتفننت في إبداعها ، وملأتها بكل ما هو مثير وآخاذ ، فأدخلوا فيها السحر والخرافات والبطولات والمآسي ، وصاغوها شعراً ونثراً ، وسرداً ومسرحيات ، وجاءت الكتب السماوية وحفلت بالقصص كذلك ، وكان القرآن الكريم مدرسة متميزة في الأداء القصصي

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرىٰ ... ﴾
(يوسف : ١١١)

ويقول سبحانه :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ... ﴾

ويقول ايضاً :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (يوسف : ٣)

القصّة القرآنيّة والأدب الإسلامي

ويقول سبحانه :

﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ... ﴾ (الأعراف : ١٧٦)

القصة القرآنية لها مزايا عدَّة نذكر منها :

اولاً : ارتباطها بالحقيقة والواقع التاريخي .

ثانياً : انها أحسن القصص بأسلوبها ومضمونها وتأثيرها وغايتها .

ثالثاً : انها تقدم للتعليم والعظة والعبرة .

رابعاً : تنوع أشكالها ، فقد تكون قصيرة جداً ، وقد تكون طويلة ، وقد تكون بين بين ، وقد يروى جزء من القصة في مكان ، وتختصر باقي الأجزاء ، ثم تفصل الأجزاء المختصرة في موقع آخر من كتاب الله ، حيث يقضي الموقف ذلك التنوع في الأسلوب أو العرض أو الأداء .

خامساً : الحبكة الدقيقة .

سادساً : الاستنارة أو لحظة التنوير قد تاتي في شكل عبرة او حكمة أو تقرير موجز ، لأن القرآن يضع الهدف من القصة فوق الاعتبارات الفنية المصطنعة .

سابعاً : البعد عن الغموض والإبهام ، استناداً إلى طبيعة القرآن الكريم من انه دعوة وبلاغ وإبلاغ ، وبيان وتبيين ، ومن ثم فإن القصة فيه تحرص على الإشباع العقلي والوجداني ، دون حيرة أو إبهام ، حتى يتبلور التأثير ويتوحد فكراً ونفساً ، ويمهد السبيل لرحلة جديدة من التفكير والتذكر واتخاذ موقف واضح .

ثامناً : الحرص على استيعاب الأبعاد المختلفة للشخصية ، وخاصة في نطاق الانفعالات النفسية ، والتفاعلات العقلية ، والممارسات السلوكية .

تاسعاً : التركيز في بعض الأحيان على « جزئية » خاصة في القصة ، لها اهميتها وإيحاءاتها وخطرها ، على الحدث الكلي للقصة .

عاشراً : توظيف « الكلمة » في الجملة ، أو النسق العام ، توظيفاً فريداً ، فتنطبع في الذهن ، وتفعل فعلها في النفس ، وتبدو كعنصر أساسي يستحيل أن يتم البناء الفني بدونها لمن يقرأ أو يسمع .

حادي عشر : يأتي التكرار فيها ، وكأنه صيغة جديدة ، تبعث على الاهتمام والمتابعة ، ولا تبعث في النفس أدنى ملل ، ودونما حشو .

ثاني عشر : شعور الاستمتاع والرضى والحماسة حين تسمع أو تقرأ ، بالنسبة لكافة المستويات الثقافية ومراحل العمر المختلفة .

ثالث عشر : إعطاء المرأة نصيبها في القصص القرآني .

رابع عشر : التركيز على القضايا الأساسية للإنسان مثل : التوحيد ـ العبادة ـ الخير ـ العدل ـ الصدق ـ الجهاد ـ الإيثار ـ الوفاء ـ المحبة ـ العلاقات الإنسانية ـ الصبر ـ الاستقامة ... إلخ .

وتشغل قصة نبي الله يوسف عليه السلام ، معظم آيات السورة ، وتتماوج فيها الأحداث المثيرة الشيقة ، وتبدأ من طفولة يوسف ، وغيرة إخوته منه ، ومؤامرة التخلص منه ، وتداوله في سوق الرقيق ، واستقراره في قصر عزيز مصر ، وافتتان المرأة بجماله ، ووقوعه مرة أخرى بين براثن الغدر والمكيدة ، وإدخاله السجن ظلماً ، وسنوات الجدب التي حلّت بمصر ، وقيام يوسف بالدعوة إلى الله في سجنه ، وخروجه لتنفيذ خطة ناجحة للنجاة من خطر الجوع في سنوات الجدب والجفاف ، ثم الأمل الذي يلازم اباه الحزين في العودة . ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (يوسف : ٨٧) وتبتسم الحياة .. ويلتقي الأب بولده الصالح وهو في قمة مجده ، ولده يوسف الصديق الذي أيَّده الله بنصره ، ونجاه من شتى الفتن ، وأظهر الحق ، وأبان عن قدرته الغالبة ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ... ﴾ (يوسف : ٢١) .

والناظر في قصة يوسف يرى عجباً ، فليس هناك عنصر من عناصر القصة الفنية المعروفة إلَّا ونجده فيها ، سواء في الشكل أو المضمون في الحوار أو الوصف ، في العقدة أو المقدمة أو لحظة التنوير ، في رسم الشخصيات والبيئات .. ولنضرب لذلك مثلاً بسيطاً عن جو القصر الذي تعيش فيه امرأة العزيز :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ
وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ
قَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ ..
إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ
إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ...•
وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ..
كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ •
وَاسْتَبَقَا الْبَابَ
وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾

وهنا يظهر الزوج لدى الباب ، وسرعان ما ترتبك زوجه ، فيتفتق ذهنها عن حيلة ماكرة ، ومن ثم تتهم يوسف عليه السلام بأنه هو الذي يحاول الاعتداء عليها .. ويأتي الحكم فيُظهر براءة يوسف ، ولكن الضجة تثور في المدينة :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ

■ بغير استلهام مضامين القرآن ، لا يستطيع الأديب المسلم أن يجيد التعبير عن الكون والحياة والإنسان وسائر المخلوقات .. وليس في ذلك تعطيل للإبداع الفني ، وإنما إمدادٌ له بمزيد من الطاقات والإمكانات .. لأن القرآن وضع الأسس الصحيحة لفنّ الكلمة الجميلة المؤثرة على إطلاقها . ■

عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ ... ... ﴾ .

(يوسف : ٣٠ - ٣٢)

ألا ترىٰ ذلك « السيناريو » المذهل في حركة المرأة التي اشتعل جسدها بالشهوة ، وأعماها الهوىٰ كيف تنقضُّ على يوسف ، وتمزق ثيابه ، ثم يدفعها الحقد الشيطاني لتلصق به تهمة هو منها براء ، وتتمادىٰ في هوسها ورغبتها الآثمة ، فتعلن على النسوة دون حياء ، أنها مصرة على اندفاعها الأرعن ، وأنها سوف ترمي بيوسف في السجن إذا لم ينصع لإرادتها المنحرفة ، والغريب أن تنفذ ما هددت به برغم براءته ، وثبوت طهارته ..

إنني أسوق هذا الجزء بالذات من القصة الطويلة الفذّة ، لأنه يفصح إلى حدّ كبير عن مواصفات « القصة القرآنية » ، وشموليتها على الأبعاد المختلفة للحدث والشخصيات والحوار وتصوير الحركة الهادفة الموحية المؤثرة ، والإحاطة الحكيمة بالمشهد (وهو ما نسميه بالسيناريو) وما يضطرم فيه من أقوال وأفعال وظلال وحرارة وإضاءة ، كما أسوق هذا المثل أيضاً لمن يتحرجون أو يتورعون عن التعرض لمشاعر المرأة وعواطفها ، خاصة في حالة الزيغ والانحراف ، والانسياق وراء إغراءات الإثم ، ولواعج الشهوة ، وأقول لهؤلاء جميعاً :

إن الأثر العام أو الكلي لدى المتلقي هو ما نهدف إليه ، دونما تزيّد أو مبالغة ، تشط بنا عن القصد ، أو تهوي بمشاعرنا إلى الجوانب المهلكة ، ولا شك أن المتتبع لأحداث قصة يوسف عليه السلام سوف يستشعر معاني الراحة والرضىٰ حينما يصل إلى السطور الأخيرة في القصة ، حيث تعترف امرأة العزيز بالحقيقة ، وتعلن طهارة نبي الله :

﴿ ... قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

(يوسف : ٥١ - ٥٣)

وهناك قصة موسى عليه السلام ، وملحمة بني إسرائيل التي تفيض بالعديد من القصص المتميزة ، ذات الفصول الفريدة ، حيث نرىٰ أحداث قارون والسامريّ وفرعون والتّيه وجالوت وطالوت وشعيب ، وقصص سليمان وداود ، ونوح وابنه وقومه ، وإبراهيم وقومه ، والمسيح ومريم ، ونلاحظ في هذه القصص وغيرها القضايا الرئيسة التي تمس واقع الإنسان في دنياه ، والعالم الآخر ، وما يحفل به ..

وبعـــد ..

أليس هذا هو ﴿ القَصَصُ الْحَقُّ ﴾ ؟؟

أليس هذا هو ﴿ أَحْسَنُ الْقَصَصِ ﴾ ؟؟

وهل هناك إبداع أسمى من إبداع « البديع » سبحانه ؟؟

إن القصة بالمفهوم الإسلامي فن سامٍ بكل معنى الكلمة ، وإنه يستمد سموه من عظم الرسالة التي يبلغها للبشر بأسلوبه الممتع المؤثر ، وتفوق المثل الذي يعرضه ، ولن نستطيع بحق أن نبدع أدباً إسلامياً حقيقياً دون النظر إلى كتاب الله ، والتمعن في آياته ، والاستيعاب لقصصه ، والتأدب بآدابه ، والتشبع بمنهجه ، ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ﴾ ..

لقد قدمت دراسات عديدة في الإعجاز البياني للقرآن ، وعكف بعض الباحثين على دراسة القصة القرآنية ، واهتم بعضهم بمقارنة قصص القرآن بالقصص الذي ورد في الكتب السماوية الأخرىٰ ، وحاول بعضهم النبش في مظانّ قديمة مدعياً البحث عن أصول القَصَص الوارد في الكتب السماوية ، وبعض الباحثين استسلموا لأوهام المستشرقين والمنصّرين ، وخلصوا إلى نتائج غاية في الغرابة والزيف ، لكن كم واحداً من أولئك وهؤلاء حاول أن يبتدع فناً قصصياً معاصراً يستلهم تراثنا العظيم ، ويتعلم منه معنى الالتزام ، ويسمو بالكلمة الجميلة المؤثرة إلى آفاقها الإلٰهية السامية ، حتى يصبح الفن الحديث بحق إعلاماً إسلامياً صادقاً ، بكل ما تحمله هذه العبارة من معانٍ إيجابية بناءة ؟؟